الملتقى الوطني الأول:

حداثة الكتابة الأدبية والصحفية في أعمال الراحل عياش يحياوي

محور المشاركة:المحور الثالث:

عنوان المداخلة: خطاب الذاكرة في رواية

لقبش سيرة ذاتية لحليب الطفولة لعياش يحياوي

الدكتورة: باية بن مساهل

أستاذ محاضر "أ" قسم اللغة والأدب العربي،جامعة محمد بوضياف المسيلة

baya.benmessahel@univ-msila.dz

نص المداخلة:

عياش يحياوي فقيد الأمة العربية، وفقيد الجزائر الخالدة ، ابن ولاية **المسيلة** الذي كرس قلمه للصحافة والأدب والشعر مخلفا طيلة مساره الإعلامي عدة دواوين شعرية وكتب أدبية كديوان (تأمل في وجه الثورة)، وديوان (قمر الشاي)، وديوان (جزر الإمارات المحتلة)، وكتاب (ابن ظاهر شاعر القلق والماء)، وكتاب (العلامة والتحولات)، و رواية (لقبش "سيرة ذاتية لحليب الطفولة") وغيرها.

وتخليدا لذكرى هذا الرجل الشاعر والأديب الصامت والإعلامي الراحل الذي مثل الجزائر خير تمثيل خارج وطنه في الإمارات العربية المتحدة، وقع اختياري في هذه المداخلة على سرديته الموسومة بـ: لقبش (سيرة ذاتية لحليب الطفولة) في جزءها الأول الذي لم تكتمل أجزاءه، فقد سرقت يد المنون الأديب عياش يحياوي قبل أن يخط قلمه حروفها ، وتكتب ذاته المبدعة ذاكرتها التي تنم عن خصوصية التجربة . وما ميز هذه المدونة أنها من **روايات السير الذاتية** التي تجاوزت الرواية الجزائرية المشغولة بالإديولوجيا إلى نمط من الكتابة التسجيلية التي تؤرخ أدبيا لجانب من معاناة الطفولة الجزائرية بعد الاستقلال على الرغم من كونها تسجيلا لأحداث خاصة عاشها الكاتب[1] ، فقد مارس الأديب يحياوي في (لقبش) وجوده الإنساني، وأثبت هويته الوطنية، وحاكى خبراته وقدراته الفنية والإبداعية وفق منظور ذاتي رؤيوي.

ولقد ارتبطت سردية "لقبش" بالمكان الجزائري (منطقة الحضنة) ارتباطا وثيقا حتى غدت معالمه وسماته شاهد عيان على معاناة أفراده في مرحلة ما بعد إستقلال الجزائر، فالفضاء المكاني بامتداداته ومكوناته يساعدنا على فهم الشخوص التي تقطنه وتبين لنا وضعها الاجتماعي وتكوينها السياسي والفكري والإيديولوجي، وبالتالي يمكننا من أن نفهم الأوضاع السياسية والثقافية والاقتصادية والفكرية لمجتمع ما، أو منطقة ما، فالإنسان متصل بالمكان، وهذا المكان له خصوصيته وتاريخه وجماليته، و « العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فهو يفتقد خصوصيته وبالتالي أصالته»[2].

إذ يساهم المكان بشكل كبير في البناء العام للرواية، كما أنه يعد عنصرا محركا وأداة فنية ناجحة تؤثر في نمو الأحداث وتطورها، وتتحرك من خلاله الشخصيات فهو يعتبر همزة الوصل التي تربط بين الشخصيات والزمن والأحداث، باعتباره عنصرا فعالا في تنظيم الأحداث ..... وكذلك بفضل العلاقات التي يقيمها مع

الشخصيات والأزمنة[3]، ولأن السيادة في هذه الرواية تنعقد للمكان ومشاهده الغارقة في الماضي والذاكرة؛ ماضي الطفل الصغير(لقبش) أصبح العمل الروائي ملازما للأرض الجزائرية التي احتضنت الأحداث، أرض الحضنة...

و تعتبر **قرية الصبي لقبش** والراحل الشاعر والإعلامي وأديب المهجر " عياش يحياوي " من أكثر الأمكنة التي اقترنت بمرحلة صباه، ففيها نشأ وتربى، وهي تمثل ماضيه، إذ توسع في تصويرها وتنويع مشاهدها، وكان أكثر ترددا عليها في رواية سيرته الذاتية، وهو ما يعكس شدة ارتباطه بها،فارض الحضنة هي أبرز البنيات التي أسست لسيرة " لقبش" كونها لا تزال كانتماء أخضر يورق في الذاكرة حتى بعد ذلك الوقت، فكانت تتراءى له القرية بين أبجدية الحروف، وعلى دفاتر الذكرى، وبين رسائل الطيور، فقد كان المكان يحمل أكثر من رمزية له سياسية، وتاريخية، ونفسية كان أكثر من كونه مكانا جغرافيا، إذ اعتبره " فكرة، لأنه ينتقل من وجود مادي إلى وجود لغوي، وتتحول صورته من بعد تسجيلي إلى بعد متخيل"[4] ، فوقف في الرواية على جسر من الحنين و الخوف القديم، وزار اغترابه وفتح نوافذ الذاكرة، يستذكر خمور العناق الذي أدمنته الشفاه يوما بين سهول القرية، التي مثلت أبرز الأمكنة التي أسهب الكاتب في الحديث عنها فتتحول من كونها رقعة جغرافية ممتدة في زمن ما لمكان ذو وظيفة دينامية تعكس الاغتراب، والمأساة والفقر والتيه والوجود، فيتحول المكان إلى شخصية شاهدة على طفولة الكاتب دورها التوثيق على ما يسرد ، فتأتي القرية بوصف خاص، وعلاقة خاصة متأسسة على " ذاكرة الكتابة وهو بهذه الصورة يأتي مكانا مختصرا ومكثفا يقحم موضوعاته في متاهات الحنين، والغربة، وفي جدليات الحضور والغياب، وفي ثنائيات الوطن والأرض وفي تأملات الألفة والموت"[5] في ذلك يقول " يوم تزور القرية تر كل إبل القرية وخيامها، وصرعوفة شياهها، وتر زرعها أخضر، وهناك قرب ((الرحى الطايح)) سيكون في جيب جدك القديد والحلوى والوطن الجميل. والطالب ((الضحوي)) ستسمع صوته من بعيد يصيح في ((القدادشة)) أن ارفعو أصواتكم، فلقد كان ضد خفض الصوت. إفتح عينيك جيدا، ستجد النساء يتزين بالمسواك والياسمين و ((البريانتيل))، ويحملن على ظهورهن قرائر التبن والقمح وحزم (القشقاش))، وستجد أم الساعد، تلك الفلاحة الصعبة المارس التي تناطح الرجال ولا تستقر على حال. هناك بين القطف والسدر والإبل وخيام أولاد نايل ونباح الكلاب وعناقيد النجوم، ستجد مهرك الأول الذي لا اسم له، ولا طريق له، ولا ظل له.. هناك في ((الحضنة)) تحت برنوس جدك حيث يبدأ العالم ولا ينتهي"[6] .

بهكذا مدلولات ارتبطت القرية بذاكرة الصبي فرغم فقرها كانت تنسج الشمس من شعرها غرة، لخيالات الصحو بين رنين حبات القمح وخلاخل الصهيل ونزيف الدمار في الذاكرة، كلها نعوت تتولد في اللحظة الآنية لفعل الكتابة والمنبعة من دفقة شعورية خاصة كلما ارتبط الأمر بالقرية (الحضنة) لتظهر في محطات سردية عديدة. وهذا ما يضفي وجود خاصا للأمكنة في السيرة الذاتية كون الكاتب يغذي المكان بتوصيفات ناتجة عن نظرته الخاصة به . ومن هنا اخذ طابع خاص يتغير بتغير الذات الساردة كونه يمثلها ويكتب بخصوصيتها[7].

فقد قدم لنا الكاتب الراحل "عياش يحياوي " صورة عن القرية تعكس مشاعر **الانتماء والحنين** ، ويتجلى ذلك في أكثر من مقطع كان يناجي ذلك الطفل الصغير بلقب القروي قائلا « أيها الصبي القروي ها هم الناس حولك، والأسواق عامره والإدارات والشوارع، إنك تعذبني بجنونك، أكاد أجزم أن صدرك مملوء بأحجار قريتك وذهول طفولتك، صدرك المسكون بالدجاج والذباب والروث وزرقه الجبال، وأحلام طفولتك التي طرأ عليها الموت»[8]، وبهذا فإن الكاتب خلق من أشياء بسيطة ،قد لا يلتفت الى قيمتها أي من الأشخاص الذين لم يسكنوا القرى ، صورة معبرة عن حنينه وتعلقه بقريته، وقد وظفها بطريقة أحيت أجواء القرية في نفوسنا،... فالأحجار والجبال والدجاج أحلام الطفولة وحتى الروث والذباب، كلها أشياء تشكل معالم قريته وداكرته التي لا تموت. فـالكاتب يرى انتمائه في كل سنبلة تتراقص على أغنية الحصاد، وبراري القرية، وزعترها البكر، والمتعبين، وكل تلك الصور المحفوظة في شظايا السنين. غير أن أشرعته أبحرت في الشرايين تبحث عن العشق في قرويته رغم أن الفقر طوق أزاهير براريه، وشرد أحلم صباه فهو يذكر جيدا "

ونفس الفكرة تتردد في مقاطع السردية التي تعبر عن مشاعر **الحنين والداكرة** و منها قوله : « فكلما رأى راعي غنم تمنّ في سريرته لو يقايضه ذلك الراعي بالمدينة ويترك له القرية والغنم واللذة الدائمة التي يجدها في صباحات الفلاحين وأمسياتهم»[9]، بمعنى أن المدينة رغم ما تتميز به من تطور وتحضر ورفاهية لا تعوض عن اللذة والبهجة التي تبعثها فيه أصبوحات القرية وأمسياتها، فعلاقة لقبش بالقرية " علاقة ارتباط الذات الإنسانية والمكان، هذه العلاقة الارتباطية بين الساكن والمسكون، أشبه بأن تكون علاقة الروح بالجسد، لذلك كان له حضور دائم في الوجدان"[10] لذلك لم تشخ القرية في ذاكرة الصبي وجاءت مورقة في نبض السطور الثكلى بأمل اللقاء " الصبي يندثر كالنخلة فوق الهضاب، وبين الشعاب، قبره ((الحضنة)) كلها.. ابحثوا عنه في ماقي السواقي المتجهة إلى حقول الشعير والقمح، وفي أشعة الشمس صباح يوم شتائي قارس، وفي زغاريد الحضنيات، وفي صمت الجدات"[11].

ادن فالتعالق الذي يربط الصبي بالقرية وتماهيه معها هو فحوى السيرة الذاتية من خلال تحميل الأمكنة طابع الذات الكاتبة فقد كان " الصبي قرية تمشي وتسافر"[12] هذا التشبيه البليغ الذي جعل الصبي والقرية في مرتبة واحدة ينقل المكان من واقعيته ليعطيه إحساس ووجود خاص فالإنسان " لا يحتاج إلى رقعة فيزيقية جغرافية يعيش فيها بل يميل كذلك إلى البحث عن رقعة من الأرض يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته"[13] .

والصبي / عياش يحياوي " قد سافر كثيرا ورأى نخل الصحراء المرجحنة عراجينه، ورأى نخل العراق ومكة، وعايش نخل المدن الساحلية، لكن نخلة ((عواسة)) تلك التي رأتها عيناه لحظة الدهشة الأولى والدمعة الأولى ظلت سيدة النخل جميعا"[14] .غير

أن للقرية طابعها الخاص في نفس الكاتب وتأثيث سردي لمرحلة طفولته فالقرية كانت اللبنة الأولى التي مشى عليها نحو الأفق والمؤسس له وبذلك تبقى حية في الذكرى، تعيش بين عظام الذاكرة " لأنها نقطة البدء وأصل الأمكنة الأخرى"[15] .

وهذا ما يجعل إذ كان الكاتب يرى انتمائه في كل سنبلة تتراقص على أغنية الحصاد، وبراري القرية، وزعترها البكر، والمتعبين، وكل تلك الصور المحفوظة في شظايا السنين غير أن أشرعته أبحرت في الشرايين تبحث عن العشق في قرويته رغم أن الفقر طوق أزاهير براريه، وشرد أحلم صباه فهو يذكر جيدا "

يعد فضاء (أرض الحضنة/القرية) أبرز مظاهر الهوية والداكرة الوطنية التي جسدها الأديب الراحل عياش يحياوي. وكانت اكثر رسوخا في ذاكره الصبي، ويعد المعيار العاطفي عاملا مهما في تغليب حضور فضاء القرية على باقي الفضاءات، فنجد قوله: « في الصباح تبدأ حركة القرية، حركة أناس يعيشون لأنهم لم يموتوا بعد، لا يعيشون لأهداف كبيرة، فقد تحررت الجزائر هدفهم الأكبر، ألفوا المعاش بين الماعز والكلاب والدجاج وهجير الصيف وقر الشتاء يأكلون القوت وينتظرون الموت.....[16] ، فاستحضاره الدائم لهذا المكان يعكس تعلقه به وحنينه إليه، فهو يمثل مواطن الطفولة اين حفرت تلك الصور المحفوظة في شظايا السنين. وأبحرت أشرعته في شرايين الداكرة تبحث عن العشق في قرويته رغم أن الفقر و البؤس طوق أزاهير براريه، وشرد أحلام صباه فهو يذكر جيدا أن قريته لم تخل من الجوانب السلبية، فقد ارتبطت بمظاهر الفقر والحرمان تمثلت حيث توجد رائحه الروث والفقر والبؤس وانتظار الموت، حيث ألوان الأرض الباهتة تتوق إلى الصراخ، حيث للسراب أجنحه وللأحلام انكسار، هناك على هضبات الحضنة، عشيه يفتح الصبي عينيه في انتظار وصمت[17]، في هذا المقام يختزل الكاتب الانطباع السلبي الذي اختزن في ذاكرته عن القرية وفق تركيب مجازي يجسد ملامح اليأس القروي.

ومن أدلة ارتباطه بالأرض، وبالتحديد القرية التي ولد فيها وترعرع، اللون البني وهو لون من الألوان التي تزين الغلاف الخارجي للرواية، فهو **رمز للتراب والأرض** التي احتضنته صغيرا، وهي **أرض الحضنة** التي تدل على جذور وانتماء الصبي، ذلك أن قريه الصبي ولون البيوت من طين، يقول عياش يحياوي: "في وسط مدينة **الحضنة** ولد الفتى، ببلدة عين الخضراء التابعة إداريا لولاية المسيلة على بعد ساعتين من طبنة ونصف ساعة من مقرة، وقضى الفتى شطرا من طفولته لاهيا فوق أطلال مدينة طبنة غير مدرك لقيمتها التاريخية...."[18] ، ويقول أيضا: « حيث للألوان الترابية الباهتة رغبة للصراخ، وحيث للسراب أجنحة وللأحلام انكسار يابس هناك على هضبات الحضنة »[19]، فقد كانت القرية فضاءات للعب وكل لحظات الطفولة المرحة.

حتى أنه خص الإهداء « إلى طفل متسخ اليدين والقدمين يخاف لمس الخبز الأبيض»[20]، وفي ذلك إشارة إلى هون المعيشة والبؤس والفقر واشتداد الحاجة، حتى أن الخبز كان شيئا صعب المنال بالنسبة له، وهو علامة بارزة وصورة حقيقية تعكس الذاكرة الشقية البائسة بشقيها **المكاني والزماني**، والتجارب التي مر بها أطفال الجزائر إبان حقبة الاستعمار وبعد الاستقلال ، و"لقبش" ليس سوى جزءا منها فهو تعبير عن مرحلة من مراحل الجزائر التي يمكن إغفالها مرحلة الفقر والبؤس إبان الاستعمار.

الملاحظ أن الكاتب تعامل مع المكان تعاملا فنيا أسْهَم في تشخيصه، فمن خلال حديثه عن القرية نرى أنها تمثل بالنسبة إليه رمزا للطمأنينة والبساطة والاستقرار، بغض النظر عن الجوانب السلبية فيها، وللكاتب ذكريات عديده بها تتوزع عبر أماكنها المختلفة، تبرز حسب الأحداث المنتقاة.

فللمكان في سردية "لقبش" قيمة خاصة في تحقيق الرؤيا السردية الخاضعة للهوية الجزائرية، فجاء تصوير القرية مليئا بالتناقضات بين البؤس واليأس وما يوازيها من بساطة وطمأنينة...التي في غالبها تحدد انتماء طبقة الشعب الكادحة في مرحلة تاريخية معينة عانت فيها الجزائر من ويلات الاستعمار وما بعد الاستعمار، وقد ابتدأ عياش يحياوي في مدخل سرديته بتحديد الموقع الجغرافي للقرية، وإبراز معالمها التاريخية والعلمية، فالحضنة منطقه جغرافية تتربع على مساحه شاسعه، "هي (الحضنة)جنوب شرق العاصمة الجزائرية بحوالي 350 كلم، جبل بوطالب شمالها، والسبخة الكبرى وبدايات الصحراء جنوبها، وفيها توجد مدينة المسيلة عاصمة المعز بن باديس الفاطمي، ومنجبة الشاعر ابن هاني، والناقد ابن رشيق صاحب كتاب العمدة المشهور بالقيرواني...في وسط منطقة الحضنة ولد الفتى ببلدة عين الخضراء التابعة إداريا لولاية المسيلة على بعد ساعتين من طبنة ونصف ساعة من مقرة، وقضى الفتى شطرا من طفولته لاهيا فوق أطلال مدينة طبنة غير مدرك لقيمتها التاريخية...»[21]، ومن هنا عمد الكاتب إيراد جانب من سيرة المكان، وذلك لإيصال لمحه شامله للقارئ عن طبيعة المنطقة التي نشأ فيها، و ما تحمله من هوية تاريخية وعلمية وثقافية.

يشارك **الجبل** كداكرة مكانية مكملة وقيمة جوهرية في قلب الرواية، حيث يشكل جزءا من التصميم الطبيعي لقرية الصبي، يقول الكاتب : « والجبال أنت تذكرها، لم تكن الجبال كتلا من الصخور والأشجار، لقد كانت في قلوب الناس كائنات مجاهدة مسكونة بأرواح خيرة »[22]، هذا الامتداد الطبيعي من الأرض يكتسب قيمة فنية ورمزية، نظرا لخلفياته التاريخية وارتباطه بالثورة التحريرية، ومن كلامه ندرك أن الجبال تحولت إلى كائنات مجاهدة لأنها كانت توفر الحماية للمجاهدين المرابطين هناك، بل إنه نقل ما قاله ابن خلدون في

كتابه"تاريخ ابن خلدون" عن تاريخ مدينة طبنة:".... وما بين هذه البلدان والجبال التي هي سياج التلول بسائط متلون مزاجها تارة بمزاج التلول ، وتارة بمزاج الصحراء بهوائها ومياهها ومنابتها، وفيها القيروان وجبل أوراس، يتقاطع مع مركزها، وبلاد الحضنة، حيث كانت طبنة،، وفيها مقرة والمسيلة[23] مستحضرا هويتها المكانية وما تحمله من ذاكرة، وهو يشرك القارئ في التأمل من خلال استحضار عظمة " جبال الاوراس " التي تجسدت في عرف الأدباء والجزائريين عموما كرمز للثورة والاستقلال، فانتماء عياش يحياوي إلى بلد اسمه الجزائر، وإلى منطقة اسمها الحضنة جعلت ذاكرته تسجل هوية الأمكنة بما تحملها من دلالات وطنية.

ويلعب أيضا **بيت الطين** دوره في رسم ذاكرة منطقة الحضنة....ويتم بناءه، وهو بيت العائلة الصغيرة التي لا يزال الكاتب يحتفظ برسم دقيق لكل زواياه، يقول: « يذكر الصبي جيدا دارهم الطينية غرفة واحدة، هناك في الزاوية حيث اسْوَدَّ الحائط يقع الكانون، وبجواره ثلاث صخور هي المناصب، وعلى اليسار يقع القش، وهو مستند إلى دعائم خشبيه مرتفعة عن الأرض .... أما السقف فمن السدر والطين »[24]، والملاحظ أنه قدمه بأسلوب دقيق يقوم على الوصف لإبراز جانب من جماليات المكان المدفونة في الذاكرة، فوصفه للبيت بهذه الدقة والبساطة يمنحنا انطباعا عن تعلقه بالمكان حتى رسخ في ذهنه بتلك الصورة المفصلة، نظرا لارتباطه بجزء هام من طفولته، ويكفي أن يكون بيت الأسرة حتى يتسم بالدفء والحنان والمحبة، لأنه إذا ما طالعناه بألفة فإنه سيكون أبأس بيت سيبدو جميلا[25].

فقد كانت أمنية الطفل "لقبش" هي أن يبقى في القرية بين أهله وأصدقائه، لكن ابتعاده عنها طال، فقد ظل متنقلا بين المدن والمدارس ومنازل الغرباء، يقول: « فهو يدرك أنه ليس في حاجه إلى شيء سواء معرفة متى ينتهي طريق السفر المتواصل؟ لماذا يظل أطفال الدنيا مع أهاليهم وهو مطالب بالسفر»[26].

قائمة الهوامش والإحالات:

---

[1]– ينظر عياش يحياوي : لقبش، سيرة ذاتية لحليب الطفولة، الجزائر، دار الديوان، ط3 ،2016،ج1،ص:10

[2]– باشلار غاستون : جماليات المكان (ترجمة غالب هالسا)، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط 6، 2000، ص 6.

[3]– ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي،(الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي،المغرب، ط2، 2009، ص20.

[4]- قاسم يوسف، استيراتيجية التجريب في الرواية الحداثية، مجلة الأنبار، ع 6، 2010، ص 33.

[5] – المرجع نفسه، ص 20.

[6] –عياش يحياوي، لقبش سيرة ذاتية لحليب الطفولة، ط3، الجزء الأول، مطبعة الديوان، الجزائر، 2016، ص 75،76.

[7] – قاسم يوسف، استيراتيجية التجريب في الرواية الحداثية، ص 19.

[8]– عياش يحياوي : لقبش، سيرة ذاتية لحليب الطفولة، ص17.

[9]– ينظر: عياش يحياوي: لقبش، (سيرة ذاتية لحليب الطفولة)، ص17.

[10] محمد عبيد صك8الح السهباني، المكان في الشعر الأندلسي، ط1، دار الأفاق العربية، القاهرة، مصر، 2007، ص 107.

[11]الرواية، ص 83.

[12] الرواية، ص 145.

[13] نبيلة إبراهيم، فن القصة في النظرية والتطبيق، دط، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة مصر، دت، ص 140.

[14] الرواية، ص 82.

[15] شاكر النابولسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1994، ص 52.

[16]– عياش يحياوي: المصدر نفسه، ص78.

[17]– ينظر: عياش يحياوي: لقبش (سيرة ذاتية لحليب الطفولة) ، ص81.

[18]– عياش يحياوي: لقبش (سيرة ذاتية لحليب الطفولة)، ص: 13

[19]– عياش يحياوي: لقبش، (سيرة ذاتية لحليب الطفولة) ص87.

[20]– عياش يحياوي: لقبش، (سيرة ذاتية لحليب الطفولة)، ص5.

[21]– عياش يحياوي: لقبش، (سيرة ذاتية لحليب الطفولة) ص12.

[22]– عياش يحياوي: لقبش، (سيرة ذاتية لحليب الطفولة)، ص148.

[23]– عياش يحياوي: لقبش، ص:13

[24]– عياش يحياوي: لقبش، ص 44.

[25]– ينظر: غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة: غالب هالسا، ص 36.

[26]– عياش يحياوي: لقبش، (سيرة ذاتية لحليب الطفولة) ص140.